



قصة الإسكندرية

تقدمها جامعة الاسكندرية
يوم الجلاء

أعد هذا البحث
الدكتور جمال الدين الشيال
أستاذ التاريخ بجامعة الاسكندرية

مطبعة جامعة الاسكندرية
١٩٥٦





قصة الإسكندرية

تقدمها جامعة الاسكندرية
يؤمها الجلاء

أعد هذا البحث

لـ كـنـز ـ مـمـال الدين السبيل
أسفاد التاريخ بجامعة الاسكندرية

مطبعة جامعة الاسكندرية

١٩٥٦

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده جل شأنه على عظيم نعمه وكريم آلائه ، وبعد .

فحتفل البلاد اليوم بمناسبة من أجل مناسباتها القومية ، بل انها أجلها جميعا ، وهي تمام جلاء المحتل واستكمال تحرير الوطن .

واذا كان يحق للمصريين كافة أن يفرحوا بهذا العيد — عيد الجلاء — ويحتفلوا به ، فإن للاسكندرية مع الاحتلال شأنًا يقتضيها أن تكون فرحتها مضاعفة ، فهي أول بلد ابتلى بالاحتلال واكتوى بناره ، وقد تلقت الضربات الأولى لقوى المدوان الناشئة فتحملتها مجاهدة صابرة .

ولقد رأت جامعة الاسكندرية أن تسهم في هذا الاحتفال بما يتفق ورسالتها الثقافية والتعليمية ، فأعدت ” قصة الاحتلال “ لنشرها بين جمهور المواطنين عبرة وعظة ، وتخليدا لذكرى من قضى من الأبطال المجاهدين ، وتحية وتقديرا لمن تحقق النصر على أيديهم من رجال الثورة الأبطال وفي مقدمتهم السيد الرئيس ” جمال عبد الناصر “ .

والله نسأل أن يجعل هذا النصر فاتحة لمهد تقدم ورخاء لوطننا الكريم ، انه نعم المولى ونعم النصير .

مدير الجامعة

بسمير زكي

الاسكندرية في ٩ من ذى القعدة سنة ١٣٧٥
١٨ من يونيو سنة ١٩٥٦

أكاذيب الاستعمار يجب أن تخرج

لقد جاهدنا من أجل هذا اليوم جهادا مريرا .

وكنا اذا ادهمت الخطوب ، أو تكاثرت السحب ، أو نال منا التعب ، نظرنا الى الأفق البعيد نستشف من ورائه صورة هذا اليوم الحبيب ، وناجينا الله سبحانه متسائلين :

يارب ، أما لهذا الليل من آخر ؟

واليوم وقد انجابت سحب الماضي البغيض ، وأخذنا الأهبة لاستقبال تباشير الفجر الجديد ، فجر الحرية الكاملة والاستقلال التام ، يجب ألا ننسى ، يجب ألا ننسى الماضي مهما كان كريها ، فالوطن ، كما قال بطل الجلاء الرئيس جمال ، ماض وحاضر ومستقبل . فنحن في حاضرنا نستقبل عيد الحرية الأكبر ونتطلع الى مستقبل مزدهر باسم ومن واجبنا ألا ننسى الماضي ، من واجبنا ألا ننسى ما فعله بنا الاستعمار .

لقد ذقنا من هذا الاستعمار مرارة الصاب والعلقم ، وأخشى ما أخشاه أن تسرى النشوة الحلوة في ألسنتنا فتنسينا طعم هذا الصاب والعلقم ، فلا نكون حريصين على نعمة الحرية ، ولا نبذل الجهد في الاحتفاظ بها ، ولا نستميت في الدفاع عنها .

ولعل أسوأ ما رمانا به الاستعمار هو سعيه الدائب أن يفقدنا الايمان بالوطن وأن يزعرع ثقتنا بأنفسنا ، فقد حرص الاحتلال منذ اللحظة الأولى على أن يشيع في المصريين بعض الأكاذيب التي اتخذ لها ثوبا علميا . من هذه الأكاذيب الشائعة التي ظل يرددها المستعمرون ، والتي ردها المصريون — للأسف — بعده ردحا طويلا من الزمن أن مصر منذ عهد الفراعنة لم تكن دولة مستقلة ، بل كانت دائما محتلة يتوالى على حكمها الولاة من كل شعب وجنس ،

وهذه الأكذوبة لم تتردد في المؤلفات الأوربية التي كتبت عن تاريخنا ، وفي الكتب المدرسية المصرية — الى عهد قريب — عبثا ، بل لقد كان الهدف من ترديدها أن تصبح حقيقة ثابتة وأن تتغلغل في نفوس الشباب المصرى حتى يستكين ويدل ، وحتى يفقد الثقة في نفسه والايمان بوطنه ؛ وعلى مصر وعلى هذا الشباب العفاء ان هو فقد هذه الثقة وهذا الايمان .

والتاريخ السليم ، والبحث العلمى الصحيح يثبت خطأ هذه الاكذوبة ، فمصر حقيقة قد فقدت استقلالها في بعض العصور ، شأنها في ذلك شأن غيرها من الدول ، ولكن هذه العصور لا تعتبر شيئا مذكورا اذا هي قورنت بالعصور الأخرى الطويلة التي تمتعت فيها بالاستقلال .

فقدت مصر استقلالها منذ عهد الفراعنة الى الآن ثلاث مرات : في العهد الرومانى ، وفي العهد العربى الأول ، وفي العهد العثمانى (والاحتلال البريطانى ما هو الا امتداد للاحتلال العثمانى) ، وذلك عدا فترات قصيرة أخرى غزا مصر فيها الغزاة ، ولكنهم ما لبثوا أن جلوا عنها سريعا كما حدث في الغزو الفارسى .

وأسوأ المهود التي مرت بمصر في تاريخها الطويل العهدان الرومانى والعثمانى ، فقد اضمحلت في خلالها البلاد اضمحلالا تاما شمل نواحيها المختلفة ، أما العهد العربى الأول فرغم أنه عهد تبعية فقد أُنقذ مصر من ظلم الرومان وعسفهم ، وحمل الى مصر العدالة والاصلاح والنور والتوحيد عند ما حمل اليها الاسلام .

فاذا استثنينا هذه العصور الثلاثة رأينا مصر مستقلة استقلالاً يكاد يكون تاما في عهود الطولونيين والأخشيديين والأيوبيين ، لا يشوب هذا الاستقلال الاخيوط واهية تتمثل في الخطبة باسم الخليفة العباسى ، وضرب السكة باسمه ، وبعض المال الذى كان يرسل من فائض الميزانية الى عاصمة الخلافة .

وكانت مصر بعد هذا مستقلة استقلالاً تاما لا تشوبه شائبة في عهدهى الفاطميين والماليك .

نقول ان البحث العلمى الصحيح يثبت ما قلناه لأننا يجب أن نزن الاستقلال بمقوماته فى تلك العصور ، لا بالمقومات التى أحدثتها العصور الحديثة ، فى تلك العصور كان الحكام يلون الحكم فى مصر تبعا لنظم مصرية معترف بها ، ولم يكونوا يولون ويعزلون بأوامر صادرة عن دولة أجنبية أخرى ، وكانت الجيوش جيوشا مصرية ، تدافع اذا دافعت عن مصر ، وتفتح اذا فتحت باسم مصر ، وكان الاستقلال الاقتصادى متوفرا ، فالعملة مصرية لا ينقش عليها غير اسم حاكم مصر ، وكانت الاتصالات الخارجية والمعاهدات والسفارات تتبادل باسم مصر لا باسم غيرها من الدول .

ولم يكن يشوب هذا الاستقلال — فيما يدعى البعض — الا أن بعض الحكام كانوا أصلا من أجناس غير مصرية ، وهذه الحقيقة الصغيرة هى التى اعتمد عليها الأوروبيون فضخموها ، وعلى أساسها حكموا حكمهم الخاطيء أن مصر لم تتمتع يوما بالاستقلال .

ولكن هذه الحقيقة الصغيرة مع هذا لاتعيب استقلالنا ولا تخدشه ، فأى أسرة من الأسر الحاكمة فى الدول الأوربية فى العصور الوسيطة والحديثة كانت تنتسب للشعب الذى تحكمه انتسابا نقيا خالصا ؟ ان نابليون الذى يعتز به الفرنسيون حتى اليوم لم يكن فرنسيا ، بل هو من أهل جزيرة كورسيكا ، والأسرة الحاكمة الحالية فى انجلترا ترجع الى أصل جرمانى ، وهتلر زعيم المانيا السابق من أصل نمساوى ، والأمثلة غير هذه كثيرة .

فاذا أضفنا الى هذا أن مدلول الوطنية فى العالم الاسلامى فى العصور الوسطى كان يصطبغ بالصبغة الدينية عرفنا أن استقلال مصر فى تلك العصور لم يكن فى مفهومه المتعارف وقتذاك ينقصه أى مقوم من مقومات الاستقلال . فالمسلم الصينى — على سبيل المثال — كان اذا حل فى الشام أو فى مصر أو فى المغرب لم يشعر أنه غريب ، ولم يشعر أهالى تلك البلاد أنه غريب ، بل كان يعتبر نفسه فى وطنه أينما حل .

فاتهاء الخلفاء الفاطميين الى الجنس العربى ، أو على الأصح انتهاء أولهم المزمز لدين الله الى الجنس العربى ، لا يعيب استقلال مصر فى العصر الفاطمى المزدهر الحافل بكل علائم التقدم والحضارة ، وإذا كان المزمز عربيا فان من تبعه من أولاده وأحفاده كانوا مصريين لمحاودما ، ولدوا فى مصر ، ونشأوا فى مصر ، وقادوا الجيوش باسم مصر ، وحكموا امبراطورية مصرية مترامية الأطراف حتى لقد كان المؤرخون المسلمون يسمون الدولة الفاطمية دولة الخلفاء المصرية .

وعند ما خرج صلاح الدين الى الجهاد الأكبر ضد الصليبيين الذى توج بانتصاره الحاسم فى وقعة حطين التى مهدت له الطريق لاستعادة بيت المقدس وتحرير فلسطين ، فانه كان يحارب بالجيوش المصرية وباسم مصر التى هو سلطانها .

وعند ما صمد الملك الكامل محمد أو الملك الصالح نجم الدين أيوب للغارات الصليبية التى هددت مصر حتى انتصرا عليها ورداها خائبة ، فانهما كانا يدافعان عن أرض الوطن بجيوش الوطن .

يضاف الى هذا أن مصر امتازت فى كل عصورها بخاصة مميزة ، فهى قادرة دائما على هضم كل غريب وصهره فى بوتقتها وتمصيره تمصيرا تاما فى وقت قصير .

ولكنه الاستعمار دائما فى كل وقت وفى كل مكان ، أمضى أسلحته تحطيم الروح المعنوية فى الشعوب المستعمرة ، وفى شبابها بوجه خاص ، عن طريق التربية والتعليم ، بما يدسه فى الكتب وفى الصحف من آراء تهدف دائما الى فقدان الثقة بالنفس والايمان بالله وبالوطن ، وتحطيم المثل العليا ، ونشر كل ما يدعو الى الرخاوة والدعة والكسل والدلة .

فالطلاب الفرنسى والطلاب الانجليزى يعلمان فى مدارسهما كل صغيرة وكبيرة عن تاريخ فرنسا وانجلترا وأبطالهما ، والطلاب المصرى فى المدارس المصرية كان الى عهد قريب لا يعرف عن تاريخ بلاده الا القدر الضئيل ، وبالصورة المشوهة ،

فمن من شباب مصر كان يعلم شيئاً تفصيلياً عن بطولة المصريين في مواقع حطين ودمياط والنصورة ورشيد للدفاع عن مصر والشرق الاسلامي ضد خطر الصليبيين والانجليز ؟

ومن من شباب مصر كان يعلم شيئاً تفصيلياً عن بطولة جيش مصر في وقعة عين جالوت للدفاع عن مصر والشرق ، بل والعالم الأوربي كله ، ضد خطر التتار المحرب المدمر ؟

لقد خرج التتار من أواسط آسيا بقضهم وقضيتهم في جموع حاشدة تضم عددهم وأسلحتهم ودوابهم ، ألوف الألوف لا يدينون بدين سماوي ولا يتحضرّون بحضارة ما ، بل لا يفهمون معنى الحضارة ولا يقدرّونها ، وظلّوا سنوات طوالاً يتقدمون والنصر حليفهم ، لا يمنهم مانع ، ولا تصدم حصون أو قلاع ، ولا تقف أمامهم جيوش أو دول ، وهم في نشوة النصر يخربون ويقتلون ويسلبون وينهبون ، ففرضوا على دولة خوارزم بعد نضال عنيف ، وقضوا على الخلافة العباسية في بغداد ، ثم تقدموا فاستولوا على الشام ، ووصلوا أخيراً الى حدود مصر عند غزة ، فتملك الفرع سكان الشرق الأوسط من هذا الشعب الذي لا يهزم أبدا .

وأرسل هولاء كورسلة الى سلطان مصر العظيم سيف الدين قطز بنذره بالويل والتهديد ان هو لم يسلم ولم يخضع ، ولكن قطز منق الرسائل ، وقتل الرسل ، وعلق رؤوسهم على أبواب القاهرة ، وخرج بجيوش مصر ، وبث الحماس في جنوده وانتصر لأول مرة على جيوش التتار في وقعة عين جالوت الحاسمة .

ولأول مرة يذوق التتار — منذ خرجوا من قلب آسيا — طعم الهزيمة ، ثم تالت عليهم الهزائم الى أن طردوا من الشام جميعاً ؛ ولم ينتصر قطز الا بقوة إيمانه ، فان الرواية تذكر أن الجيش المصري أوشك على التخاذل في بدء المعركة ، فتقدم قطز الصقوف ، وألقى بخوذته الى الأرض ، وصاح صيحته الشهيرة : ” واسلاماه يا الله ، أنصر عبدك قطز على التتار ” .

آمن هذا العبد بربه فنصره الله على أعدائه هذا النصر المبين .

لو أننا كنا نعلم شبابنا في المدارس هذه الحقائق التاريخية ، لخلقناهم خلقاً آخر يؤمن بالله وبالوطن وبالمثل العليا ، ويضحى في سبيل ذلك بكل ما يملك ، حتى بالروح ، ولكنها سياسة الاستثمار وأتباعه كانت تغطي هذه الصفحات المشرقة من تاريخنا .

واجبنا اذن أن نكشف للشباب هذه الأكذوبة الكبرى التي خلقها الاستثمار يوم دخوله مصر ، ومن الواجب أن تخرج معه يوم خروجه ، وواجبنا أيضاً أن تثبت لشبابنا اثباتاً علمياً صحيحاً أن مصر كانت في معظم عصورها مستقلة استقلالاً تاماً ، وأن نبرز أمامهم أمجادنا الحربية والحضارية .

الاستعمار البريطاني ليس وليد القرن التاسع عشر

وواجبنا أخيراً أن تثبت لشبابنا حقيقة أخرى هامة غفل عنها الكثيرون ، وهي أن الاستثمار الأوربي لبلادنا ولبلاد الشرق الأوسط لم يكن وليد القرن التاسع عشر ، بل هو حلقة من سلسلة محاولات قديمة ، هدف بها الأوروبيون الى استثمار مصر والشرق العربي .

بدأت هذه السلسلة بمحاولات الاوربيين غزو هذه البلاد باسم الصليب ، ولكن مصر تزعمت بلدان هذا الشرق العربي ، واستطاعت أن ترد حملات هؤلاء الأوروبيين مرة ومرات ، وأعطتهم دروساً قاسية لا يمكن أن ينسوها أبداً ، لعل أخطرها أسر ملك فرنسا لويس التاسع في موقعة فارسكور ، وسجنه بمدينة المنصورة . ولا يجوز أن نستمع الى قالة القائلين ان هذه كانت حرباً دينية صرفة ، فنحن لو استثنينا الحملة الصليبية الأولى وما صاحبها من حماس ديني ، نجد أن الحملات التالية كلها كانت حملات استعمارية بحتة ، الهدف الأول والأخير منها استبعاد هذه البلاد ، وإفناء أهلها ، والسيطرة على مواردها ، وان كان قواد

هذه الحملات وجنودها قد لبسوا مسوح الدين ، فأنما ليخدعوا العالم وليحققوا
مآربهم باسم الدين ، والا فان الدين المسيحى — دين المحبة والسلام — لا يمكن
أن يقر الوحشية التى اتصف بها الصليبيون فى حروبهم .

قاومنا اذن هذه الحلقة الاستعمارية الأوربية الأولى ، ونجحنا فى مقاومتها
لأننا كنا مؤمنين ولأننا كنا أقوياء ، وكانت لنا مثل عليا نحارب من أجلها .

وتابع المالك سياسة الأيوبيين ، وظلوا يقاومون هؤلاء المستعمرين الأوربيين
الى أن أخرجوا آخر جندى أوربى من عكا فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ،
ولجأت بقايا هؤلاء الأوربيين الى جزيرة قبرص ورودرس ، وأقامت فيهما دولا دأبت
على مهاجمة السواحل المصرية ، فأرسلت مصر فى عهد السلطان برسباى أسطولا
مصريا ضخماً الى جزيرة قبرص فى القرن الخامس عشر فتح هذه الجزيرة ، وعاد
الجنود المصريون المنتصرون يشقون شوارع القاهرة ، وفى ركبهم ملك قبرص أسيراً .
فن من شباب مصر يعرف هذه الصفحة المشرقة من تاريخنا ؟ ومن منهم
يعرف أن قبرص ظلت جزءا من ملك مصر الى أن فتح الأتراك العثمانيون مصر
فضموها اليهم .

وشغلت الدول الأوربية بنفسها وقتاً ما خضعت فى ابانه مصر للحكم العثمانى ،
فأصابها الضعف والانحلال ، فلما بدأت دول أوربا نهضتها الحديثة عادت تنزو
بأنظارها نحو مصر وبلدان الشرق العربى ، تريد أن تحقق حلمها القديم .

وأنت حملة نابليون الى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر ، ولقيت من مقاومة
الشعب المصرى الأبرين ، فلم يتركها هذا الشعب المجيد تنعم بالراحة لحظة واحدة ،
فقاوم السكندريون بزعامه السيد محمد كريم ، وثار القاهريون ثورتهم الأولى
والثانية ، وقاد الشعب فى مقاومته البطل المصرى السيد عمر مكرم ، وثار سكان
دمياط والمنزلة والدقهلية بقيادة البطل المصرى حسن طوبار ، بل لقد قاوم المصريون
الفرنسيين فى كل مكان حتى أسوان . واضطر الفرنسيون أخيراً الى الخروج
من مصر بعد ثلاث سنوات .

وكانت جنود الانجليز قد نزلت بأرض مصر مع الجند العثمانيين في سنة ١٨٠١
بحجة الاشراف على جلاء الفرنسيين واعادة مصر الى السلطان ، ولكن انجلترا
بدأت تتلکأ بعد خروج الفرنسيين ، تريد انتهاز الفرصة وابقاء جنودها في مصر ،
غير أن الفرصة لم تواتها ، واضطر جنودها الى الخروج .

وبدأت انجلترا تفكر منذ ذلك الحين تفكيراً جدياً في العودة الى مصر
واحتلالها ، وعادت انجلترا في سنة ١٨٠٧ ، ونزلت حملة فريزر الى الاسكندرية ،
وتقدمت نحو رشيد ، وتفرق الأهليون في المنازل حتى انتشر الجند الانجليز
في الشوارع والطرقات فأمطروهم الأهالي القذائف من كل نوع ومن كل صوب ،
فقتلوا أحد قوادهم وعدداً كبيراً منهم وأسروا عدداً آخر ، وفر الباقون منهزمين .

فالشعب هنا أيضاً الفضل في مقاومة الانجليز ، وأرسل الأسرى ورؤوس القتلى
الى القاهرة ، فارتفعت روح الشعب المعنوية ، وبدأت حركة التطوع ، وبدأ الشعب
يقيم الاستحكامات في القاهرة استعداداً للدفاع عنها ، اذا قدر للانجليز أن يتقدموا
اليها ، وتولى الاشراف على هذا كله واذكاء الروح المعنوية البطل المصري
عمر مكرم ، فقد حدث هذا كله ومحمد علي غائب في الصعيد يطارد المماليك ، ثم هزم
الانجليز مرة أخرى عند قرية الحماد ، فبدأوا يفكرون في الانسحاب ، وجلوا
عن مصر في أغسطس سنة ١٨٠٧ بعد ستة أشهر . ولكن ليتحينوا الفرص
المواتية ليعودوا اليها مرة أخرى .

وقد واثمهم الفرصة بعد خمسة وسبعين عاماً كان الشعب في خلالها قد بايع
محمد علي والياً عليه بشرط أن يقيم العدل بينهم ، ولكن محمد علي لم تكد تستقر
له الأمور حتى عمل على التخلص من الزعامة المصرية ممثلة في شخص عمر مكرم ،
واستبد محمد علي بأمور الحكم كلها ، وخلفه ولاية من أسرته ، كانوا أسوأ منه بكثير
اذ لم تكن لهم على الأقل نزعة الاصلاحية ، الى أن كان عصر اسماعيل وسياسته
المضطربة ، وبدأت دول أوروبا وخاصة فرنسا وانجلترا تتدخل ، ووجدت المراقبة
الثنائية . وانتهى الأمر بعزل اسماعيل ونفيه وتولية توفيق ، وفي عهد توفيق
نزلت جنود بريطانيا أرض الوطن .

واليوم ، وبعد أربعة وسبعين عاما يحمل الاستعمار عصاه على كتفه ويفادونا
غير مأسوف عليه ، فاقصة هذا الاحتلال ؟

انها قصة الخداع والخيانة ، انها قصة البنى والعدوان ، انها قصة المآثم
جميعاً التي ظللنا نعانى منها ثلاثة أرباع القرن ، فاستمعوا أيها المصريون
الى هذه القصة نرويها فيما يلي ، ففي المآثم بها عظة وذكرى ، ان الذكرى
تنفع المؤمنين .

مصر قبيل الازمة الاولى

تولى توفيق حكم مصر في ٢٦ يونيه سنة ١٨٧٩ ، وكان مركز مصر الدولي
حينذاك أمجوبة الأعاجيب ، فلا هي دولة مستقلة ولا هي ولاية تابعة لغيرها ،
فهى من الناحية الدولية الرسمية ، وتبعاً لمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، تعتبر جزءاً
من أملاك الدولة العثمانية ، وقد اعترفت بهذه التبعية دول أوروبا الكبرى ، إنجلترا
وروسيا وبروسيا والنمسا والمجر ، والخليدو وان كان يتولى الحكم بطريق الارث
لأنه من سلالة محمد على فانه لم تكن له الحرية التامة في التصرف في شؤون مصر
الداخلية والخارجية .

وليت الأمر وقف عند حد التبعية لتركيا ، اذن لهان الخطب ، ولسهل
على مصر وهى تخطو وقتذاك خطواتها الوئيدة نحو التقدم أن تنفض عن كاهلها
عبء هذه التبعية في الوقت المناسب ، وخاصة أن تركيا كانت كما وصفها سياسيو
أوروبا بحق كالرجل المريض ، رقص رقصة الذبيح وتعانى من حشجة الموت .

ولكن الخطب كان أجسم فان فرنسا التى حاولت محاولتها الفاشلتين في عهدى
لويس التاسع ونايليون ، وإنجلترا التى حاولت محاولتها الفاشلتين في سنتى ١٨٠١
و١٨٠٧ لم يغرب عن خيالهما بعد هذا الجلم القديم ، حلم السيطرة على وادى النيل ،
وقد مهد اسماعيل بسياسته السالية الخرقاء الفرصة لهاتين الدولتين للتدخل العملى
في شؤون مصر رغم هذه التبعية الدولية الشكلية لتركيا . وفرضت الدولتان
على مصر شبه حماية مشتركة حين أوجدتا نظام الرقابة الثنائية ، ذلك النظام الذى

جعل لـانجلترا وفرنسا حق الاشراف الفعلي على شؤون مصر المالية والادارية ،
ثم تطور هذا النظام الى تعيين وزيرين أوروبيين في الوزارة المصرية ، وبذلك فقدت
مصر ذلك القدر الضئيل الذي كان لها من الاستقلال في ادارة أمورها الداخلية .
ترى هل كان هذا وذاك هو كل ما بليت به مصر في أواخر القرن التاسع عشر
من أرزاء ؟

كلا ، بل لقد تكاثرت عليها البلايا التي أفقدتها مقوماتها كدولة
والتي أفقدت المصريين كل حقوقهم كمواطنين ، فقد كان هناك نظام القضاء
المختلط احدى هدايا اسماعيل ، وهو نظام غريب لم تعرفه دولة من دول العالم
في أى فترة من فترات التاريخ ، نظام يحد من سلطان مصر وسيادتها في التشريع
والقضاء ، ويخضع المصريين لها كم أجنية في كل شيء ، في قضائها وتشريعها ،
ولغاتها ، وهو الى هذا وذاك سند قوى لنظام الامتيازات الأجنبية ، كما أنه يفتح
الباب على مصراعيه أمام الدول الأوربية للتدخل في شؤون مصر المالية والادارية
والتشريعية ، وفي كلمة واحدة أصبحت لهذه المحاكم سلطة أقوى من سلطة
الحكومة المصرية ، بل لقد أصبحت دولة داخل الدولة .

وكان يصاحب هذه الأحوال الداخلية المضطربة ويمعصرها انتشار فكرة
التسيطرية الاستعمارية Imperialism في أوربا ، ومن علائقها ضغط إنجلترا وفرنسا
وتدخلهما العملي السافر الذي أدى الى خلع اسماعيل وتولية توفيق ، ثم هذا التدخل
المالى والسياسى ، ثم اقدام فرنسا على غزو تونس وضمها لأملها في سنة ١٨٨١ .

كل هذا أوجد في مصر والشرق الأدنى حالة نفسية جديدة ، وانقلب اعجاب
الشرقيين بالأوروبيين الى شعور قوى بالسخط والكراهة والحقد ، وأخذت الأوربيين
روح العزة والسيطرة ، واعتقدوا أنهم عنصر ممتاز من حقهم ألا يخضعوا لقوانين
هذه البلاد المتأخرة في نظرهم ، ومن حقهم أن يعدلوا في قوانين مصر كما شاءوا وانما
لصالحهم هم لا لصالح البلد وأهليه ، وتمادوا في عتوهم فنظروا الى الحكم نظرة
متعالية ، وعاملوهم باحتقار ، ووصفوهم بأوصاف تبعد عن الذوق والأدب والمجاملة .

وهكذا انقلب الوضع ، فبعد أن كانت الامتيازات الأجنبية تعتبر منحة من حكام مصر لحماية التجار الأوربيين ولتيسر لهم القيام بمهامهم التجارية أصبحت في القرن التاسع عشر سلاحا قويا في أيدي هؤلاء الأوربيين يستخدمونه لاذلال المصريين والسيطرة على جميع أموالهم ، وليجمعوا أنفسهم — فيما يدعون — من أوضاع الشرق الفاسدة ومن ظلم حكامه وسوء ادارة موظفيه ، ووجد المصري نفسه بذلك غريبا في بلاده ، وتعالى هؤلاء الأجانب ووقفوا دائما حجرة عثرة في سبيل كل اصلاح ، فقد اعتقدوا أن كل اصلاح سينتهي حتما بالقضاء على مصالحهم وعلى المركز الممتاز الذي يتمتعون به وعلى المكاسب التي تجد طريقها الى جيوبهم وإلى جيوبهم وحدهم .

وسط هذا الظلام الحالك كان المصريون يقلبون وجوههم في كل اتجاه يلتمسون قيادة حكيمة تخرجهم من هذه المتاهة ، وتفهم عنهم آلامهم ، وتقدر آمالهم وتقودهم نحو الطريق السوي للتخلص من ربة هذا التدخل الأجنبي الذي كانت تضيق قبضته حول رقابهم يوما بعد يوم ، وللخلاص من هذا الارتباك المالي الذي أنتجته سياسة اسماعيل .

وكان المصريون بعد هذا يتطلعون الى قيادة منهم تحقق آمالهم في الحرية والاستقلال فقد كانت الدولة العلية صاحبة السيادة الاسمية في شغل شاغل عن مصر ومشاكلها ، ولم يكن يعنينا الا أن تستعيد سلطانها العتيق الفعلي على مصر ، وكان توفيق صاحب العرش شخصية ضعيفة مترددة ، ومع هذا كان ديكتاتوري النزعة لا يؤمن ايمانا صادقا بالدستور أو الحياة النيابية أو حقوق الشعب ، وكان يعنيه أن يرضى دول أوربا قبل ارضاء المصريين وخاصة بعد أن شاهد بعينه كيف عزل أبوه نتيجة لتدخل أوربا ، وهو الى هذا كله لم يكن يثق بمعظم رجال الحكومة وخاصة أولئك الذين كانوا يعملون مع أبيه .

الثورة العراقية

أشاح الشعب المصري اذن بوجهه عن الدولة صاحبة السيادة وعن الحاكم صاحب العرش ، وتطلع الى قيادة من بنيه ، ولم يطل انتظاره ، فقد ظهرت هذه القيادة في شخص مصري فلاح هو أحمد عرابي أحد ضباط الجيش .

وقد بدأت الحركة العراقية حين بدأت داخل الجيش ولاصلاح الجيش ، ولكنها لم تلبث أن تطورت فأصبحت ثورة عامة عارمة واحتضنت كل آمال الشعب ، وأخذت تعمل على تحقيقها . وتاريخ الثورة العراقية تاريخ غريب أو هو يبدو كذلك لمن ينظر الى التاريخ نظرة سطحية ، أو لمن لا يتعمق الأسباب ، ويدرس المقدمات ، ويربط بينها وبين النتائج .

ثورة تبدأ حركة ضعيفة في ركن من الأركان ، داخل الجيش لاصلاح الجيش ولانصاف الضباط المصريين من اضطهاد السيطرة التركية العسكرية ، ثم تتطور الى أن تصبح ثورة عامة تنمقد عليها آمال شعب بأسره وتصبح اللسان المعبر عن كل ما يشكومنه الشعب من تدخل الأجانب ، ومن اضطراب الأحوال المالية ، ومن فقدان الحرية وضياح الكرامة ، وتنبور هذه الآلام والآمال سريما فتصبح أهدافا واضحة تعمل الثورة على تحقيقها ، وفي مقدمتها اصلاح الجيش واستعادة الحياة الدستورية . ثم ، ثم تنتهي هذه الثورة بالفشل بل و باحتلال دولة أجنبية لأرض الوطن ، وهذا أغرب الغرائب في تاريخ الثورات .

كيف بدأت اذن هذه الحركة وما أسبابها ؟ وكيف تطورت فأصبحت ثورة ؟ ثم كيف أخفقت وانتهى الأمر بمجيء انجليترا الى مصر ؟

التاريخ لا يعرف المفاجآت ، بل ان التعمق في أسبابها ودراسة فلسفته يرى أن له قوانين منطقية كقوانين الطبيعة ، فالحركة العراقية لم تظهر فجأة ، بل لقد كانت هناك مقدمات وأسباباً مهدت لظهورها ، ولعل أهم هذه الأسباب وأبرزها ظهور حركة الجامعة الاسلامية وعلوها .

لبثت الدولة العثمانية تحكم دول الشرق الأوسط العثماني قرابة ثلاثة قرون حرصت في خلالها على أن تضع لهذه الدول نظاما تربطها بالدولة وتديم سيطرتها على هذه الولايات أطول مدة ممكنة ، وأدت هذه النظم الى تشاحن القوى لا يتجاوز الأموال ، وتطاحن للاستئثار بالسلطان ، فساءت الأحوال ثقافيا واقتصاديا وحرية ، وإبان هذا أغلقت الأبواب والنوافذ في هذه الدول فاقطعت العملة تساميا بينها وبين أوروبا في وقت كانت أوروبا تنهض فيه نهضة علمية صناعية حربية ، فلما وافي القرن التاسع عشر وبدأ الأوروبيون يعملون لتحقيق أحلامهم القديسة والسيطرة على الشرق الأوسط الاسلامي ، وطرقوا الأبواب فلم يجدوا مداخل ، لأن الدولة العثمانية نفسها كانت قد آل أمرها الى الضعف والانحلال ، وبدأ الأوروبيون يزحفون نحو العالم الاسلامي زحفا وئيدا أكيدا ، باسم المال والاقتصاد حينئذ ، وباسم المصالح الأوروبية حينئذ آخر ، وباسم القوة العاشمة حينئذ ثالثا ، عند ذلك ظهر شعور مضاد يعمل على تخليص العالم الاسلامي من سيطرة الغرب ، هذا الشعور هو الذي تكون فكرة الجامعة الاسلامية ، فقد كان زعماء هذه الحركة ينظرون الى انقراض المجيد يوم كان العالم الاسلامي قوة لها شأنها فيجدون أنه كان قوة يوم أن كان وحدة غير منقسمة العري ، وكانوا ينظرون مرة أخرى فيجدون عالمهم الاسلامي ضعيفا متخاذلا مغلوبا على أمره ، وكانوا يجدونه متفرقا منقسم العري ؛ وقرنوا النظرة بالنظرة ، واعتقدوا — وكانوا محقين في اعتقادهم — أن الوحدة الجامعة كانت سبب القوة ، وأن الفرقة المتخاذلة هي سبب الضعف ، فأمنوا أن حاضرم لا يصلح الا بما صلح به أولهم ، وبهذا ولدت فكرة الجامعة الاسلامية .

كان روح هذه الحركة وزعيمها الأول جمال الدين الأفغاني .

رجل كريم المحتد طيب المنبت ، يمتاز بذكاء خارق ، عاش في طرف قصي من أطراف العالم الاسلامي هو افغانستان وقت أن كان يتنازعها نفود الانجليز والروس ، وقضى حياته صريحا ، فزار الهند وبلاد العرب ويران ومصر ، وفي كل بلد اسلامي نزل به كان يرى أهله أذلة ، وكان يرى الأوروبيين هم الأعوان سلطانا ونفوذ ، فجز في نفسه ما رأى ، وهاله ما شاهد ، فنادى بفكرة الجامعة

الاسلامية ، وكان سلاحه الأكبر لتحقيق هذا الهدف إيجاد نظام حكم دستوري ، لأنه بعد تجارب متكررة يئس من حكم هذا الشرق الاسلامي ومن احتمال أن يماونوا على اقالة العالم الاسلامي من عثرته ، بل لقد آمن أن هؤلاء الحكام بنزعاتهم الاستبدادية القوية عامل آخر من عوامل التأخر ، فهم والنفوذ الأوربي آفتان يجب القضاء عليهما معا للنهضة بالعالم الاسلامي ، والسبيل الى ذلك وحدة اسلامية ونظام برلماني دستوري .

وكان أنبغ تلاميذ الأفغانى هو الشيخ محمد عبده المصرى ، أخذ عنه مبادئه ، وشاركه مثفاه ، وعاونه فى اصدار مجلة العروة الوثقى ، ثم كان قطبا من أقطاب الثورة العربية عند مولدها ، ثم كانت له جهود مشكورة فى اصلاح الأزهر .

هذا سبب عام أثر فى مصر كما أثر فى غيرها من أجزاء العالم الاسلامي ، ومهد لظهور الثورة العربية كما مهد لظهور ثورات أخرى فى أجزاء أخرى من العالم الاسلامي .

يضاف الى هذا عوامل أو أسباب أخرى خاصة بمصر ، لعل أبرزها انتشار روح التذمر نتيجة لازدياد نفوذ الأجانب ماليا وسياسيا ، وانشاء صندوق الدين ، وتخصيص الجزء الأكبر من موارد البلاد لصالح الدائنين ، واستعلاء الأجانب ، واعتمادهم على الامتيازات الأجنبية والقضاء المختلط لمرقلة كل اصلاح قضائى أو مالى أو ادارى داخل البلاد .

وصاحب هذا كله ظهور وعى قومى جديد نتيجة لانتشار التعليم النسبى وازدياد عدد المعلمين ، وتقدم الصحافة ، والتجارب البرلمانية الأولى التى أتاحت للمصريين فرصة مناقشة أحوالهم فى أواخر عصر اسماعيل . ولم يعمل الساسة والحكام من جانبهم على تغذية هذا الوعى القائم الوليد وتنميته ، بل على العكس عملوا على كبته ومحاربته ، فتوفيق كما أشرنا دكتاتورى النزعة ، وكبير نظاره رياض على شاكلته يعمل على تقييد حرية الفكر ويضطهد كل مناوئ لسياسته .

وأخيرا أتت القشة التي تقصم ظهر البعير - كما يقول المثل - وظهر الخلل في الجيش ، وذلك حين اضطربت الأحوال المالية في أواخر عهد اسماعيل ، فأهل الجيش كما أهل غيره من مرافق البلاد ، وعجزت الحكومة عن دفع مرتبات الجنود والضباط ، فانتشرت روح التذمر في صفوفهم ، وفقدوا ثقتهم بالحكومة ، وضاعت هيبة الحكام عندهم ، وتطورت الأمور من سيئ الى أسوأ حين استبد الضباط الأتراك بالأمور وعملوا على اضطهاد الضباط المصريين وإبعادهم عن الوظائف الكبرى في الجيش .

عند ذلك اشتد ضغط البخار الى درجة أن الاناء لم يعد يحتمله الا أن يجد منفذا ومتنفسا في أحد جوانبه ، وكان المنفذ والمتنفس في ركن الجيش ، وعند ذلك ولدت الحركة العراية لتبدو في ظاهرها وأول أمرها أنها حركة جانبية مقصورة على الجيش وحده .

ولم تكن مطالب عرابي مسيرة التحقيق ، أو أعجوبة من الأعاجيب ، ولكنها كانت مطالب شرعية ، يهدف بها الى تحقيق أمانى الشعب ، فكان يطلب زيادة عدد الجيش ، وإتاحة الترقية للضباط المصريين كما تتاح للجراكسة والأتراك ، وإعادة الدستور ، ولكن توفيقا كان استبدادى النزعة ، وكانت تسنده دول أوروبا بقناصلها المقيمين في مصر ، لا يريدون لهذا الشعب تقدما أو رقيا ، بل يريدون اضافته ليضربوا ضربتهم المبتغاة من زمن طويل ، وتخرج الموقف بين زعيم الشعب وبين الخديو ، وكانت مقابلة عابدين ، التي قال فيها توفيق قائلته الأثيمة :

”أنا خديو البلد وأعمل زى ما انا عايز“ .

ولكن البطل عرابي رد عليه رده الوطنى المشهور :

”نحن لسنا عبيدا ولن نورث بعد اليوم“ .

ولعبت انجلترا لعبتها الساكرة واصطنعت حادثة الساطي مع الكارى في الاسكندرية لتثبت أن الحكومة عاجزة عن حفظ الأمن ، وعن حماية أرواح الأجانب المقيمين في مصر ، ولتمهد بذلك السبيل لضرب الاسكندرية ، وتحقيق

حلمها القديم باحتلال أرض الكنانة ، وقد نجحت فعلاً أساليب إنجلترا الماكرة ، وبدأ أسطولها يضرب خصون الاسكندرية في صباح ذلك اليوم الكريه ، يوم ١١ يولييه سنة ١٨٨٢ ، وتطورت الحوادث في سرعة عجيبة ، وانتهى الأمر باحتلال إنجلترا لمصر ، فكيف بدأ ضرب الاسكندرية وكيف تم الاحتلال ، ثم كيف ظل شعب مصر يقاوم هذا الاحتلال أربعة وسبعين عاماً لم يهدأ خلالها لحظة واحدة ولم ين عن النضال في سبيل استعادة حريته الى أن نجح أخيراً في تحقيق هذه الأمنية الحبيبة؟؟
انها قصة شعب طيب الأعراق قدم للانسانية أقدم حضارة عرفها العالم .

انها قصة شعب جلد مصابر يعشق الحرية ويضحي في سبيلها بكل مرتخص وغال .

بدأت هذه القصة عند ما رنت إنجلترا ببصرها نحو مصر تريد أن تستأثر بها وخاصة بعد أن استولت فرنسا على تونس في سنة ١٨٨١ . فنحن لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان مصير مصر قد قرر في نفس الوقت الذي استولت فيه فرنسا على تونس ، فقد بدأت إنجلترا ترسم سياسة واضحة المعالم للتدخل وحدها في شؤون مصر ، وكانت الفرصة مواتية لأنها اعتقدت أن دول أوروبا لن تعترض على تدخلها ، ولن تثير الصهاب في سبيلها .

موقف الدول

ان المانيا ومعها النمسا والمجر لم يكن يعنيها أمر مصر في كثير أو قليل ، بل لعلها كانت ترحب بتدخل إنجلترا في شؤون مصر ، على أن تترك لها حرية التصرف في مشاكل أوروبا الداخلية ، أما إيطاليا فقد كان يؤلمها أن تنفرد إنجلترا بالتدخل في شؤون مصر ، فقد كانت لها هي أيضاً أطباعها في مصر ، وكانت لا تزال تراودها أحلام الامبراطورية الرومانية القديمة ، ولكن إيطاليا في ذلك الوقت لم يكن لها وزن من الناحية الحربية أو المالية في الميدان الدولي ، لهذا لم يحس أحد بألمها ولم يدخل أحد غضبتها في حسابه .

أما روسيا فقد شابهت المانيا والنمسا والمجر ، أي أنها لم تكن تمنع في أن تعمل إنجلترا للاستيلاء على مصر ما دامت تترك لها حرية التصرف في بلاد البلقان .

ولكن بقيت هناك فرنسا ، وفرنسا في مصر ذكريات يرجع أبعدها الى أيام لويس التاسع ، ويرجع أقربها الى حملة نابليون ، ومنذ فشلت هذه الحملة وفرنسا تعتبر مصر ميدانا لنشاطها الثقافي والاقتصادي ، بدأت هذا النشاط في أيام محمد علي وكانت آخر مظاهره تحقيق مشروع قناة السويس على يد مهندسها ديلسبس ، لهذا كانت فرنسا ترقب محاولات إنجلترا في مصر دائماً بعين يقظة ، وأقصى ما استطاعته أنها حرصت دائماً ألا تترك إنجلترا تتدخل وحدها في مشاكل مصر المختلفة ، وقنعت بأن تشارك معها دائماً في الاشراف على هذه المشاكل والعمل على حلها بما يتفق ومصالح الدولتين معا ، إنجلترا وفرنسا ، ولكن إنجلترا بدأت منذ احتلال فرنسا لتونس تعمل على أن تنفرد وحدها بالتدخل في شؤون مصر ، فقد أيقنت أن فرنسا لن تثير بعد هذا اعتراضا جديا قويا ضد تدخلها في مصر ، وهي لو حاولت الاعتراض فلن يكون لاعتراضها وحدها أثر ذو أهمية .

ومع هذا فقد حرصت فرنسا على ألا تترك لإنجلترا الفرصة للتدخل وحدها في شؤون مصر ، ولم تجد إنجلترا بدا من قبول هذا الوضع ولكنها استعانت بدبلوماسيتها وسياستها الساكرة الى أن استطاعت أن تتخلص من هذه المشاركة في الوقت المناسب ، وعند ذلك ضربت ضربتها الناجحة .

وتفصيل ذلك أن الدولتين أقضت مضاجعهما الثورة العرابية ووجدتا في نجاحها قضاء على مصالحهما ومصالح رعاياها ، لهذا أقدمتا على ارسال مذكرة مشتركة الى مصر ، وقدم هذه المذكرة قنصلا الدولتين في ٨ يناير سنة ١٨٨٢ الى الخديو ، وفيها تتمهد الحكومتان بتقديم عونهما الى الخديو ومساعدته ضد الثائرين ، والعمل على استقرار النظام القائم في مصر .

فرح توفيق بهذه المذكرة فقد وجد فيها ضمنا كافيا لتقوية مركزه ، وبذلك زادت الشقة بعداً بينه وبين الشعب ، أما رجال الجيش فقد أثارته هذه المذكرة واعتبروها تدخلا سافراً في شؤون مصر ، وبدأوا يفقدون ثقتهم في إنجلترا ،

ورفضت وزارة شريف المذكرة وأبلغتها للباب العالى ، وانطلق رجال الجيش فى طريقهم وتوثقت الصلة بينهم وبين نواب الشعب ، وبدأت الثورة تتبلور لتتخذ شكلها العام المعبر عن آمال المصريين جميعاً وعن سخطهم على الدول الأوربية .

وكانت تقارير القناصل الأوربية ، وخاصة تقارير ” مالت “ قنصل إنجلترا ، تصور الحركة العرايية ونموها صورة مشوهة قائمة ، وتدعو الدول ، وخاصة إنجلترا ، للتدخل السريع الفعلي لحسم الموقف وإيقاف مطامع المصريين عند حدها ، وثارت نائرة فرنسا وإنجلترا بوجه خاص عندما أعلنت وزارة محمود سائى البارودى دستور ٧ فبراير سنة ١٨٨٢ ، وعندما أحسا أن الثائرين يفكرون جديا فى خلع توفيق بعد أن فقدوا الثقة به ، وعند ذلك اقترح ” فريسنيه “ وزير فرنسا الأول أن ترسل الدولتان أسطولا مشتركا للقيام المصرية لارهاب وزارة البارودى كى تقف باطماعها عند حد ، ورجبت إنجلترا بالاقترح ، فهذه فرصتها المواتية التى ظلت تحلم بها أجيالا طويلة .

وأبحر أسطول فرنسى وآخر انجليزى الى مياه الاسكندرية ، وأوعزت الدولتان الى قنصليهما ألا يمترضا الا بسلطة الحديو وأن يطالبا منه اقالة الوزارة ، وتردد توفيق كمادته ، ولكن الوزارة عند تخرج الموقف اضطرت الى الاستقالة وان كان الجيش قد أصر على بقاء عزائى .

وتخرج الموقف شيئا فشيئا ، وزاد سخط المصريين ، وزاد ضغط الدولتين للتدخل فى شؤون مصر وحدها . وأثار وجود الأسطولين فى مياه الاسكندرية شعور المصريين ، ووسط هذا كله انتشرت الشائعات ، وشاعت الأراجيف أن الأساطيل الفرنسية الانجليزية ستعمل على ضرب الاسكندرية ، فعم الذعر الأهلى .

ولم تكن هذه الشائعات بعيدة عن الحقيقة ، فقد كان الأسطول الانجليزى بوجه خاص يمهّد جاداً لضرب الاسكندرية ، ولكنه كان يبدل الجهد ليتخلص من الشريك المنافس ولينفرد وحده بضرب المدينة ، ولا عبء لما يقوله بعض

المؤرخين الانجليز بأن "سيمور" أمير الأسطول البريطاني تصرف من تلقاء نفسه ليحقق لشخصه مجدا ذاتيا ، فانهم يقولون ان الأوامر كانت قد صدرت الى أسطول بحر المانش كي يبحر لينضم الى أسطول سيمور ، وكان الأميرال دويل "Dowell" قائد أسطول المانش أرقى منصبا من "سيمور" ، فاذا انضم الأسطولان كانت القيادة لدويل ، وبذلك ينسب شرف الانتصار اليه اذا تم للأسطول البريطاني الانتصار عند ضرب قلاع الاسكندرية ، لهذا أسرع "سيمور" بضرب الاسكندرية .

ولكن تطور الحوادث يثبت اثباتا قاطعا أن الأسطول الانجليزى خرج ولديه خطة واضحة للعدوان ، وعليه أن يستغل الأحداث والأسباب ، فان لم يجد مبررا فعليه أن يلتمس الأحداث والأسباب وأن يخلقها اختلاقا . والمبررات التى التمسها "سيمور" لضرب الاسكندرية فيها الدليل كل الدليل .

هذه المبررات تتلخص فى أن المصريين بدأوا يعملون على تقوية حصون الاسكندرية وترميمها وتقويتها ، واعتبر "سيمور" أن هذه الاستعدادات تهدد لبوارجه وأسطوله الواقف فى ميناء الاسكندرية .

واعجب معى لهذا الذى قيل ، واذا كر معى قصة الحمل والذئب ليتضح لك وجه الباطل فى هذا الذى قيل ، والا كيف يعقل أن يقترب اللصوص من دارى فاذا عملت على تقوية أبواب الدار واصلاح اقفالها وترميم نوافذها للدفاع عن الدار اذا فكر اللصوص فى اقتحامها أو سرقة ما بها قيل لى أنت المدان ، ففى هذه الاصلاحات والاستعدادات اعتداء على هؤلاء اللصوص وتهديد لكيانهم ، فاذا لم توقفها اضطروا لاقتحام الدار دفاعا عن أنفسهم .

اننى لا أبتدع هذا القول ابتداء ولا أرويه على سبيل الفكاهة ، ولكنه الحقيقة كل الحقيقة ، هذا ما قاله الأميرال الشجاع "سيمور" للحكومة المصرية ، ولم تبلغ فرنسا من الذكاء ما بلغه "سيمور" فى ذلك الوقت ، فاجتمع مجلس وزراء فرنسا وقرر أنه لا يستطيع أن يصدر أوامره الى الأميرال "كونراد" قائد الاسطول الفرنسى بالاشتراك مع "سيمور" لينعنا بالقوة ببناء الحصون أو نصب المدافع فى قلاع

الاسكندرية . وأخبر مسيو "فريسنيه" رئيس وزراء فرنسا سفير إنجلترا في باريس أن الحكومة الفرنسية تعتبر هذا التصرف لو تم عملا عدائيا هجوما ضد مصر ، والاشتراك في مثل هذه الحرب فيه اخلال بنص الدستور الذى يحظر الدخول في حرب دون موافقة مجلسى النواب والشيوخ . وتبع هذا أن أرسل "فريسنيه" الى "كونزاد" قائد الأسطول الفرنسى يأمره ألا ينضم الى "سيمور" اذا وجه اندارا نهائيا للمصريين بشأن التحصينات ، واذا أصر "سيمور" على ضرب المدينة فانه يجب على "كونزاد" أن يتراجع بسفنه وألا يشترك مع "سيمور" في هذا الضرب .

الإنجليز وضرب الاسكندرية أوقفه المذبذب مع الحمل

بهذه التعليمات الصادرة في ٥ يوليه سنة ١٨٨٢ خلا الجو لسيمور فأسرع باتخاذ الاجراءات لتحقيق خطته قبل أن تراجع فرنسا نفسها ، وعلى الرغم من أن وكيل نظارة الحرية المصرية ذهب يوم ٦ يوليه لمقابلة "سيمور" ، وقدم له تقريرا أكد له فيه أن الأعمال الاصلاحية في القلاع قد أوقفت ، وأن هذه الأعمال لم يكن يقصد بها تهديد الأسطول البريطانى أو الاضرار به ، فان "سيمور" لم يقتنع ولم يرجع . فان قصة التحصينات وتهديد الأسطول لم تكن الا خرافة أو تلمة يحاول بها أن يبرر هذا العدوان . تلمة لم تكن تقرها المبادئ الانسانية أو القوانين الدولية أو الحكمة المنطقية ، وأما كان يقرها شيء واحد هو شريعة الغابة ، الشريعة التى تبيح للقوى العدوان على الضعيف .

وفي هذه اللحظة تحرك قناصل الدول الأوربية الموجودون في الاسكندرية ، تحركوا للدفاع عن مصر والمصريين ، بل للدفاع عن حقوق رعاياهم وأرواح رعاياهم وأملأ رعاياهم ، فأرسلوا في ٧ يوليه مذكرة مشتركة وقعوا عليها جميعا الى الاميرال "سيمور" يسألونه هل اقتنع برد الحكومة المصرية ورضى بتأكيدها أم أنه لا زال



| مل الل |

هكذا كان يبدو مكان اللسه

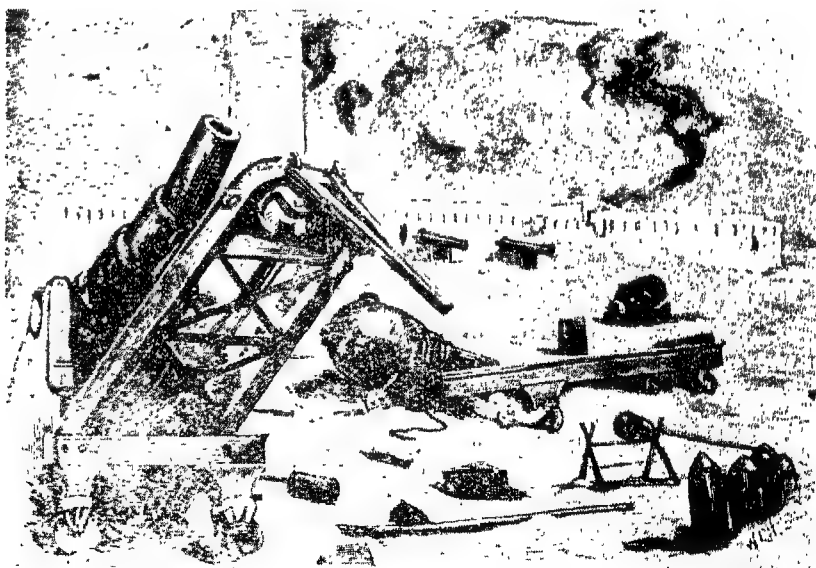


| بعد الغداء |

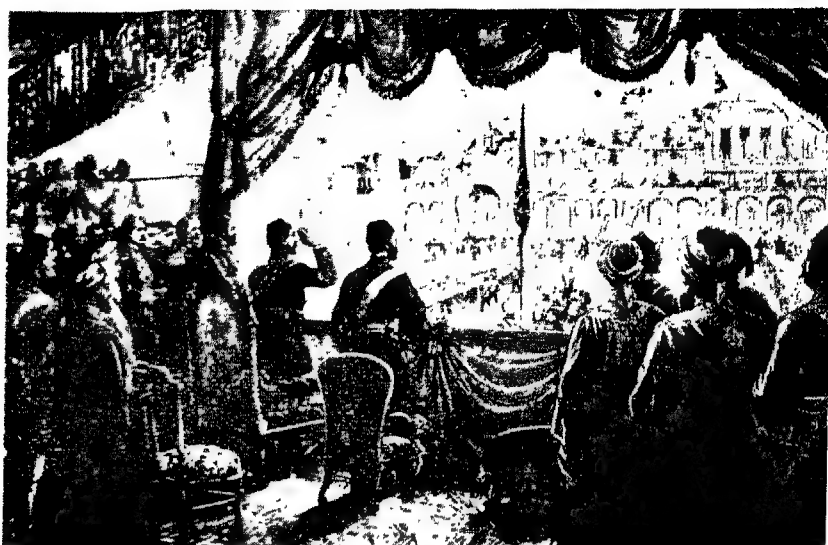
وهكذا أصبح ميدان المشية



[هكذا وقف جنود مصر وأطالها ، فى احدى قلاع
الاسكندرية ، يدافعون عن الوطن ضد العدو المعتص]

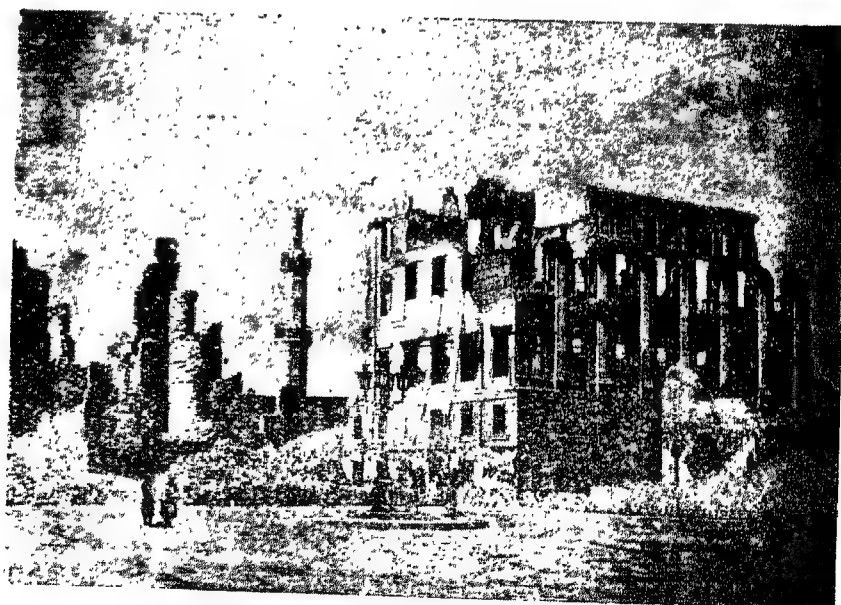


[وهكذا كانت تبدو طابية قايناي بعد المعركة ، وكل قطعة من
سلاح تشهد أن جنود مصر دافعوا عن حصصهم أعداء]



وثيقة الحياة

[انه يوفيق استعمرس حمود الاحلان
في قات القاهرة ، في ميدان عهديس]



آثار التخريب

[في ميدان مسجد الشيخ ابراهيم باشا]

عند رأيه في ضرب الاسكندرية ، فانه لا يمكن أن يتم ضرب الاسكندرية
— كما يقولون — ” بدون أن يجر أخطارا جمة على المسيحيين والأهالي معا ،
ولا بدون تدمير ما لا يحصى من أملاك الأوربيين “ .

وأسرع السيد سيمور بالرد على السادة القناصل في نفس اليوم ، وتكاد كل كلمة
من كلمات خطابه تنطق بأن الأمر مبيت ، وأنه لا مفر من ضرب الاسكندرية ،
وهو يربح في نأ كبدات أوفى ” لأن التأكيدات المكتوبة مهما تكن عباراتها
قليلة القيمة بالنسبة للمصالح التي أوغمت عليها “ .

تم هو يطمنهم على أملاك الأوربيين وأرواحهم لأنه لن يضرب المدينة
بل سيكتفي بضرب القلاع ، فانه يقول في خطابه للسادة القناصل :

” ويلزمي أن أبن لكم أنى لا أنوى ولا قلت مطلقا أنى أفصد
أن أضرب مدينة الاسكندرية ، فان أعمالى الحرية اذا أمست ضرورية
فستوجه الى الحصون ، ولا أرى سببا للخوف من وقوع تلف يصيب
الأملاك الخصوصية التى أتم من أجلها فى وجل “ .

فالسيد قائد الأسطول البريطانى والسادة قناصل الدول الأوربية لايعنيهم
من أمر الضرب الا حماية أرواح الأوربيين وأملاكهم ، وهذا هو مدى فهمهم للقيم
الانسانية ، فلا ناس الا الأوربيين ، أما أصحاب البلد وأما أملاك المصريين وأما مصر
نفسها فالى الجحيم فى سبيل تحقيق مآرب السيد الأوربى وفى سبيل سيادته ورفاهيته .

ومع هذا فان الأمبرال ” سيمور “ لم يف بوعده ، وسنرى بعد قليل أن الضرب
لم يقف عند القلاع ، بل انصب على المدينة كلها فخرّب معظم أحيائها تخريبا بشعا
لا زالت تشهد به الصور التى أخذت للمدينة قبل الضرب وبعده .

وكان ” سيمور “ منلهفا على تحقيق بعثته ، فعلى الرغم من تأكيدات المصريين
له فى ٦ يولييه بأن التحصينات قد أوقفت فقد استأنف فى اليوم التالى وهو يوم
٧ يولييه فصلا جديدا من قصة الذئب والحدل ، فأرسل الى قائد الاسكندرية الحربى

يخبره أنه قد علم بأن مدفعين جديدين قد نصبوا في اليوم السابق في خطوط الدفاع المشرفة على البحر، وأن بعض الاستعدادات الحربية على وشك الانتهاء، والقصد منها — كما يقول في خطابه — :

” تهديد الأسطول الذي تحت قيادتي ، فيجب على والحالة هذه أن أعلنكم أنكم ان لم تأمروا بالاقلاع عن هذه الأعمال أو تكونوا قد أمرتم بالاقلاع عنها يكون واجبي ضرب الحصون الجارية فيها البناء“.

وأسرع طلبة عصمت قائد القوات المصرية بالاسكندرية فرد عليه مؤكدا أن هذه الأخبار عارية عن الصحة .

قال الدبب للحمل عند ما أخفجه الحل بردوده المنطقية التي تثبت براءته :
” اذن فهو أبوك أو عمك الذي عكر على الماء “ ثم انقض عليه فافترسه .

وعند ما أخف ”سيمور“ ظل يومى ٨ و ٩ يوليه يتلمس سببا جديدا فلمالم يجد
نسئلا أرسل الى قائد القوات المصرية فى ٩ يوليه هذه البرقية :

” ايماء الى برفيتى المؤرخة فى يوم ٤ يوليه ١٨٨٢ أقول انه ليس هالك أدنى ريب فيما يتعلق بالتسليح ، وأنى سأخطر قناصل الدول الأجنبية غدا عند شروق الشمس وأشرع فى الضرب بعد ٢٤ ساعة ان لم تسلم الى الحصون القائمة على البوغاز والتي نشرف على الميناء “ .

وانقض سيمور ببوارجه على الاسكندرية .

الآن حصحص الحق ، فالمصريون مهما أكدوا كاذبون ، والسيد ”سيمور“ صادق ولا شك فى صدقه ، وما دام يقول ان التحصينات مستمرة فيجب أن تكون التحصينات مستمرة ، وعلى المصريين الآن اما أن يسلموا قلاعهم أو حصونهم عن طيب خاطر ، والا فان الأميرال ”سيمور“ يكون مضطرا لضربها للدفاع عن نفسه وعن أسطوله .

واقراءوا معى أيها المصريون هذه البرفة الثانية التى أرسلها مستر "كارتر" -
من ظهر البارحة "هاككن Helicon" - احدى سفن الأسطول البريطانى . -
فى نفس اليوم وهو ٩ يوليه الى وزير خارجية إنجلترا :

" سيدى اللورد

أتشرف باخباركم أنه انصل بالأميرال سير يوشامب سيمور أن مدفعين
جديدين نصبوا صباح اليوم بمحصى السلسلة القاسم تجاه النيباء الجديدة
ولا يستطيع الأميرال أن يلازم الصمت حيال هذا العمل العدائى . فقرب
أن يطلق النار عند شروق شمس يوم الثلاثاء ١١ الجارى "

يا للهول !! لقد جرؤ المصريون على نصب مدفعين فى أحد الحصون . انه
بهذا يهددون الأسطول البريطانى الهادىء السالم !!

انها ملهاة عجيبة تحتاج شاعرهم العظيم شكسبير ليصنع منها مسرحية حادة .
وليسجل فيها وحشية المصريين الذين جرؤوا على نصب مدفعين قديتين فى عازهم
الصدأ ولا تكاد قذائفهما تنطلق حتى تنساقط فى مياه البحر على بعد أمتار قليلة .
وليسجل فيها أيضا انساية الأسطول الانجليزى الذى أبى إلا أن يضحى ببعض
جهوده وقذائفه لتأديب هؤلاء المصريين المتوحشين ولتلع عدوانهم ، وذلك تخريب
قلاعهم ومدنهم وسلب حريتهم واستقلالهم واستغلال مواردهم وثرواتهم .

ومضى الأميرال الشجاع "سيمور" فى كتابة بقية فصول القصة .

المصريون الوطنيون الثائرون لحريتهم وكرامتهم هم العدو كل العدو . وهم الهدف
كل الهدف .

أما الأجانب من كل لون وجنس فهم عنصر ممتاز يجب حمايته حتى لا يناله
ضرر أثناء الضرب والعدوان .

وأما صاحب العرش ، الخديو توفيق ، فهو حليفهم الأكبر فمن الواجب أيضاً أن يشمله رعايتهم وحمابتهم .

وهذه أمجوة أخرى من أعاجيب هذه القصة ، فإليك لن تجد في كتب التاريخ مهما قرأت أن عدواً يهاجم بلداً فينضم صاحب العرش الى العدو المهاجم ويحالفه ضد شعبه ورعيته ، ولكن هكذا شاء توفيق وهكذا ضرب للخيانة مثلاً فذا لن تجد له سدياً أو مثيلاً .

وفي نفس اليوم ، ٩ يوليه ، أرسل مسر "كارترائت" مذكره الى فنانسل الدول ، هذا نصها :

سيدي

أتشرف بإخباركم أنه من المرغوب فيه اعلان كافة الاشخاص التابعين لحكومتم بأن يكونوا في البواخر الراسية في الميناء في مدة ٢٤ ساعة تعد من تاريخ هذا الاعلان .

وهذه البرقية وحدها تثبت في وضوح أن أكدوبة المدفعين لم تكن الاتعة ، وأن ضرب الاسكندرية كان أمراً معداً ، تتخذ لتنفيذه الخطوات في ترتب منظم محكم .

وسعى الانجليز في نفس الوقت الى حليفهم الأكبر الخديو توفيق للاتفاق على خبر السبل لأمين حياته ، ويذكر أحمد شفيق (باشا) في مذكراته أن مسر كارترايت أشار على الخديو توفيق أن ينزل هو وأسرته الى إحدى البواخر الانجليزية ليكون في مأمن مما عساه أن يصيب سراي رأس التين لأنها عرضة لقذائف المدرعات ، فأبى .

والرواية على هذا الوضع قد يفهم منها أن الرجل كان وطياً مخلصاً ، فقد أبى أن يقبل حماية الانجليز له ، ولكن اسمع ما قاله مسر "كارترائت" في برقية

أرسلها الى "لورد جرانفيل" في ٧ يولييه ، يخبره فيها بمقابلة تمت بين الحديو والسر
 "أوكلاند كافن Auckland Colvin" ، وينقل اليه فيها ما يخص ما دار بين الرجلين
 من حديث ، قال فيها :

"وأعرب سموه (الحديو) عن نيته في الانصراف هو ودرويس باشا
 الى أحد القصور القائمة على شاطئ المحمودية اذا كان الضرب من جانب
 الأسطول الانجليزي ، وأنه بقدر الاسراع في انجاز الضرب يفل الخطر
 الذي يحيق بشخص الحديو .

وكان سموه أثناء المقابلة راط الجأش ، يتكلم بصوت هادي ،
 واختتم الحديث بنوجيه الرجاء الى سر "أوكلاند" أن يبلغ وراة
 هذا الى سعادكم .

ولقد عقدت العزم على أن أخرج درويس باشا أنه في حالة حدوث
 ضرب تاتي حكومة صاحبة الجلالة البريطانية عليه مسؤولية سلامة الحديو
 الشخصية وأمنه " .

ومضى الأبرال "سيهور" قدماً في تنفيذ خطئه ، فأرسل مسر "كارترابت"
 ومصل بريطانيا في الاسكندرية خطاباً الى درويس باشا - مبعوث السلطان ---
 في يوم ١٠ يولييه يباثه بانسحابه من المدينة وبقطع العلاقات بين بريطانيا ومصر ،
 وختم خطابه بالاشارة الى الموضوع الهام الذي يعني بريطانيا ، وهو سلامة
 سمو الحديو ، قال في ختام خطابه :

" ثم أخبركم أنني مكاف بأن أعلن سعادتكم بالضرورة الماسة
 لكفالة سلامة سمو الحديو في كل الظروف ، وأن حكومة جلالة الملكة
 تأمل من سعادتكم أن تشاروا وقاية سموه وأمرته بكل أنواع الاحتياطات
 التي تستدعيها الأحوال باستعمال نفوذكم المستمد من سيابتكم عن
 جلالة السلطان " .

وكان درويش باشا أحكم من الحديو توفيق وأكثر منه وطنية .

درويش باشا التركي ونائب السلطان ، انبرى في رده يدافع عن توفيق صاحب العرش ويبرهن على أن سموه يعنى بسلامة الوطن عنايته بسلامة شخصه ، فقد قال درويش باشا في ختام رده على مستر "كارتر" :

"أما التنبيه الذى وجهتموه الى أن أ كفل بكل مالى من الوسائل سلامة سمو الحديو ، فيجب على أن ألفت أنظاركم الى أنه ليس من الصواب إيجاد تمييز بين شخصية سمو الحديو توفيق باشا السامية وحكومته ، وانه لمن الطبيعى جداً أن سموه ما زال يعنى بسلامة وهناء البلاد التى يحكمها أكثر مما يعنى بسلامة شخصه " .

هذا دفاع كنا نحب أن نسمعه من توفيق ، ولكننا نطلب المستحيل لو طالبنا توفيقاً بمثله ، فسنرى الخيانة مجسمة فى كل حركة من حركات توفيق بعد ذلك ، سنراه يفر بروحه الى سراى بعيدة عن الميناء يقيم فيها آمناً ليُشاهد الاسكندرية العظيمة وقنابل الأسطول تخرب مبانيها وتقتل جنودها وأهلها ، وسنراه ينتقل الى سراى رأس التين ليرحب بالانجليز عند زولهم ، وسنراه يستعرض جيوش بريطانيا فى ميدان عابدين ، وسنراه يفعل كل ما من شأنه التمكن للاحتلال البريطانى فى أرض وادى النيل . فاذكروا هذا أيها المصريون ولا تنسوه .

وفى ١٠ يولييه أرسل الأميرال "سيمور" خطاباً آخر الى قائد الاسكندرية الحربى يشير فيه الى خرافة الاستعدادات الحربية وينبئه فيه بأنه مصمم على تنفيذ وعيده وأنه سيبدأ ضرب الاسكندرية عند شروق شمس يوم ١١ يولييه .

وعند ذلك حاول المصريون محاولة أخرى لايقاف هذا العدوان المتوقع ، فذهب راغب باشا رئيس النظار بنفسه لمقابلة الأميرال "سيمور" فى البارجة "انفسيبل" — مقر القيادة — وبعد نقاش طويل تنازل السيد "سيمور" وعرض على الوفد

الذى يفاوضه تعديلا جديدا ملخصه أن يعمل المصريون على ائزال كل المدافع الموجودة فى الحصون والقلاع المشرفة على البحر ، وأن يقوم بهذه العملية الجبود المصريون تحت اشراف ضباط من الانجليز .

يا للمهانة !! أى دولة فى العالم وأى جيش محترم يستطيع أن يقبل هذا العرض ؟؟

وحمل راغب باشا هذا الاقتراح الى المصريون ووعد أن يرسل الرد عليه فى مساء نفس اليوم ١٠ يوليه .

واجتمع مجلس كبير فى رأس التين حضره توفيق ودرويش والنظار والقواد والأعيان ، واختلفت الآراء ، وكان من بينها ما يريد قبول الانذار ، ولكن بعد مناقشات طويلة قرر المجتمعون أن يرسلوا الرد التالى الى "سيمور" ، وهو رد مشرف ، نرى أن تثبته هنا بحروفه فهو وثيقة شرف لآباء لنا ، أبوا — رغم قوة العدو وتفوقه حربيا — قبول الضيم ، أو التهاون فى الدفاع عن حقوقهم وحقوق الوطن عليهم . وفيما يلى نص الرد :

" لم تعمل مصر شيئا يقضى بارسال هذه الاساطيل المتجمعة ولم تعمل السلطة المدنية ولا السلطة العسكرية أى عمل يسوغ مطالب الأدميرال الا بعض اصلاحات اضطرارية فى أبنية قديمة ، والطوابى الآن على الحالة التى كانت عليها عند وصول الأساطيل ، ونحن هنا فى وطننا وبيتنا ، فمن حقنا بل من الواجب علينا أن نتخذ عدتنا ضد كل عدو مباغت يقدم على قطع أسباب الصلات السلمية التى تقول الحكومة الانكليزية أنها باقية بيننا .

ومصر الحريصة على حقوقها الساهرة على تلك الحقوق وعلى شرفها لا تستطيع أن تسلم أى مدفع ولا أية طماية دون أن تكره على ذلك بحكم السلاح .

فهي لذلك نحتج على بلاغكم الذى وجهتموه اليوم ، وتوقع مسئوليات جميع النتائج المباشرة وغير المباشرة التى تنجم اما عن هجوم الأساطيل أو عن اطلاق المدافع على الأمة التى تقذف فى وسط السلام القنبلة الأولى على الاسكندرية ، المدينة الهادئة ، مخالفة بذلك لأحكام حقوق الانسان ولقوانين الحرب .

وأيضاً تقرر من باب المسألة قبول ازال ثلاثة مدافع يختارها الأبرال ، وادأبى وأصر نلقى عليه مسؤولية التمدى ، وذلك بعدم المجاوبة الا بعد اطلاق القنبلة الخامسة ” .

وحمل هذا الرد ضابطان مصربان الى البارجة الانفسبل فجر يوم ١١ يوليه ، ولكن الجواب الطبيعى كان الرفض ، وكان الانجليز كراما فانتظروا حتى حمل الضابطان المصريين الرد ووصلابه الى الر ، ثم اعطوا الاشارة باطلاق النار .

هل حقيقة ان هذه الاستعدادات الحربية كانت تهدد الاسطول البريطانى ؟ أحسبني لست فى حاجة الى دحض هذه الفرية ، ولكن مع هذا اقتبس هنا ما قاله محام انجليزى كان يعيش فى الاسكندرية فى ذلك الوقت وشهد هذه الوقائع بنفسه ، قال هذا المحامى مستر ” رويل Royle ” فى صفحة ٦٣ من كتابه ” المواقع المصرية The Egyptian Campaigns ” تعليقا على انذار ” سيمور ” النهائى :

” ان الخطر الذى كانت تستهدف له بوارج الأبرال نتيجة للاستعدادات المصرية ، لم يكن الا خطرا وهميا فى ذلك الوقت ، ولو فرضنا أنه كان خطرا حقيقيا لكان فى الامكان نفاذيه والبعده عنه اذا غير الأبرال موقف سفنه تغييرا طفيفا ” .

وفى الساعة السابعة من صباح يوم ١١ يوليه سنة ١٨٨٢ أمر القائد المغوار الأبرال ” سيمور ” بضرب الاسكندرية ، وأرسلت السفينة ” الكسندرا ” أول قذيفة

الى حصن الاسبتالية ثم تبعها بقية البوارج والسمن . ولكن الطواشي المصرية لم تجاوب الضرب الا بعد الطلقة العاشرة ، والبعض الآخر بدأ بعد الطلقة الخامسة عشرة .

معركة غير منطوية

ثم بدأت المعركة ولم تكن بشهادة كل من كتب عنها معركة متكافئة . كانت مدافع الأسطول البريطاني أحدث وأقوى وأمتن ، وكانت مدافعها أقدم وأبعد مرمى ، أما قلاع الاسكندرية فلم تكن في حالة طيبة . وكانت كلها مدافعاً طابية فايتباي قلاعاً مكشوفة ، أى أن الجنود كانوا يطلقون قذائفهم و انحاءهم لا تحميهم حوائط أو أسوار .

ورغم هذا فقد قاومت هذه الحصون في أول الأمر مقاومة عنيفة لم يكن أحد يتوقعها ، مما اضطر البوارج الانجليزية الى تغيير خطتها . فأتت صراحيها على بعد محدد ، وأخذت تلقى قذائفها من هذا البعد ، واستطاعت أن تحدد أهدافها بعد أن كانت تتحرك أثناء الضرب ، وبذلك استطاعت في مسعى الساعة الواحدة بعد الظهر أن تسكت حصون رأس التين ، والفنار ، والاسبتالية . بعد مقاومة باسلة وصفها القومندان "جودريتس" بقوله :

" ان جنود المدفعية المصرية جاوبوا بيران الأسطول الانجليزي الجهنمية مجاوبة مدهشة غير متوقعة البتة ، وأظهروا بسالة عجيبة رغم التفاوت الجسيم بينهم وبين الانجليز من ناحيتي عدد المدافع وعيارها ."

وانتهت بوارج الأسطول بعد ذلك الى حصن الأطلة وصوبت خمس مدافع كبيرة مدافعها نحو هذا الحصن .

وكان القائد المصري لهذا الحصن مثالا نادرا للبطولة . فقد لبث الى حاس العلم يدير المعركة في العراء بشجاعة عجيبة الى أن أصابته قذيفة أضرته أشد - متصارعة في الفضاء ، ومن المؤسف حقا أن اسم هذا البطل ضاع مع معالم المعركة . فلم يستطع مؤرخو الاحتلال - على كثرتهم - العثور عايه ، ولينا في المستقبل نوفق لمعرفة لنعمل على تخليد ذكراه .

ساعد القائد الإنجليزي "Walter Goodsall" "جودسول" قومندان
الباخرة "Chiltern" "أحدى سفن شركة التلغراف الشرفية Eastern Telegraph
مقاومة هذا الحصن ودفاع فائده ، وأعجب بهما ، قال :

"لقد عجبت من هذه البطولة التي لا يمكنني أن أدرك حقيقتها ،
نلك البطولة التي كان يتحلى بها الجنود الذين يطلقون مدافع حصن
الأطلة ، كما أعجبت كل الإعجاب بموقف قائد هذا الحصن قرب سارية
علمه وهو قائم وحده والمنظار في يده يراقب الآمار التي تركتها القذائف
في الحصن .

لقد كان هذا القائد في الحقيقة رجلا شجاعا لا يعبأ بعدد المقذوفات
التي كانت تنهمر على حصنه . . . ثم أخذت البارجة "انفلكسيل"
تصوب مدافعها الضخمة نحو هذا الحصن الى أن دكت أسسه ودمرته
تدميرا ، وفي منتصف الساعة الثانية بعد الظهر صوبت فنبلة الى
مستودع البارود بالحصن وأصابته فانفجر ، ولا بد أن كثيرا من الجنود
قد فنلوا ، فان عددا كبيرا منهم طار في الفضاء ، وكذلك الضابط الباسل
الذي كان واقفا كالأسد في عريته طار في الهواء هو وسارية علمه " .

ومد تحطيم هذا الحصن أتجهت البوارج الانجليزية الى بقية الحصون الأخرى ،
وفاومت الحصون جميعا مقاومة عنيفة لا نقل بطولة عن مقاومة حصن الأطلة ،
وأثبت الضباط والجنود المصريون من المهارة في القتال ما أثار إعجاب الانجليز
أنفسهم ، كان الماجور "Tullock" "نلك" أحد رجال المخابرات على ظهر السفينة
انقسيبل أثناء ضربها لحصن المكس ، وقد قال في ص ٢٧ من كتابه
"Recollections of Forty Years Service" :

"لقد كان مما يثير عجبى حقيقة أن أرى هؤلاء الجنود — رغم عنف
الضرب — واقفين في أماكنهم حريصين على ملازمة مدافعهم .
وكنت أرى في أكثر من مرة قذيفة من قذائفنا تدخل في إحدى

كوات مدافعهم ، وكنت أقول لنفسى : هذا المدفع قد انتهى وأصبح
 فى حيز العدم ، ولكننى كنت أعود فأقول : كلا ثم كلا ، لأن هذا
 المدفع بالذات كان لا يلبث أن يعود لاطلاق قذائفه فى الوقت المناسب ،
 وقد أتت قذائف أحد المدافع المصابة مرة بسرعة فائقة جدا حتى أننى
 لم أتمكن نفسى ، ووثبت الى حافة السفينة ، ورفعت يدى صائحاً :
 لقد أجدت العمل أيها الجندى المصرى ” .

أما الأدميرال ” سيمور ” نفسه فقد قال فى ختام تقريره عن المعركة :

” ولقد قاتل المصريون قتال الأبطال بأقدام ثابتة ، وكانوا
 يجابون النيران الشديدة التى تصبها على حصونهم مدافعنا الضخمة
 الى أن قتل عدد كبير منهم ” .

ولقد شهد المعركة المسيو ” جون نينيه ” عميد الجالية السويسرية فى مصر
 سنة ١٨٨٢ وصفها فى كتابه ” عراقى باشا “ ، قال :

” يجب أن نعترف بأن هذه مجزرة هيجية لا ضرورة لها ،
 ولم يكن لها أى مسوغ ، وليس الباعث عليها سوى الشهوة الوحشية
 المتمطشة الى القتل وسفك الدماء ، ولقد كان بوى أن أسائل أولئك
 الضباط الذين كانوا يباشرون الضرب ويقذفون فنايل الترابيزات ،
 هل يستطيعون حينما يمودون الى بلادهم ويجلسون حول موائد الشاى
 فى بيوتهم أن يتحدثوا الى ذويهم عن آثار الفتك والتدمير التى خلفتها
 تلك المجازر البشرية ؟ انى أشك فى ذلك ، فليت شعرى أى اهانة لحقت
 الأمة البريطانية حتى تثار لنفسها بهذه الفظائع . . . ؟ ! ”

ويستطرد مسيو نينيه فيصف بطولة المصريين فى دفاعهم فيقول :

” ومع ذلك فما كان أبدع هذا المنظر ، منظر الرماة المصريين
 الذين كانوا قائمين على مدافعهم وهى مكشوفة فى الرء وكأثمهم
 فى استعراض حربى لا يرهبون الموت الذى يكتنفهم ، اذ لم يكن لهم

درء وافية ولا متاريس ، وكانت معظم الحصون بلا سائر ومع ذلك فهو لاء
التجمان من أبناء النيل كنا نلهجهم وسط الدخان الكثيف كأنهم
الأبطال الذين سقطوا في حومة الوغى ثم بعثوا ليكافوا العدو من جديد
ويستهدفوا لبران مدافعه ، وكان الأئمة يزورون الحصون ويشجعون
المقاومة ، وفام الجميع بواجبهم من جند ورجال ونساء وصغار وكبار ،
ولم يكن ثمة أوسمة ولا مكافآت تستحث أولئك الفلاحين على أداء
واجبهم ، بل ان عاطفة الوطنية والثورة على الفظائع التي استهدفوا لها
كانت تستثير الحماسة في صدورهم ، وهم هم أولئك الشجعان المجهولون
الذين لم يفكر أحد في آلامهم ” .

وفي منتصف الساعة السادسة مساءً عجزت حصون الاسكندرية عن الاستمرار
في المقاومة فسكنت ، وأعطى الأميرال ”سيهور“ أوامره بالكف عن الضرب .

تخريب الاسكندرية

ولم يصب التخريب الحصون والقلاع وحدها ، بل أصاب معظم أحياء المدينة ،
فأصبحت بعد المعركة مجموعة من الحرائب المهتمة ، وكما كان ”سيهور“ يبلى حين
أبدى في تقريره أسفه لما أصاب المدينة ، قال :

”وأراني متأسفاً لا اضطراري أن أخبركم أن مدينة الاسكندرية
أصبحت بأضرار بالغة من الحريق والنهب “ .

ومن الذي سبب الحريق ؟؟

إنها فذائف الأسطول .

ومن الذي سبب النهب ؟؟

إنه الاحتلال البريطاني وجوده .

ان الأمبرال لم يف بوعده ويقصر الضرب على القلاع والحصون ، بل لقد وجهت قذائف الاسطول الى كل ناحية من أنحاء المدينة ، فحرفت البيوت وفنات الأهالي الآمنين . وصف هذا الاعتداء البعيد عن الانسانية المسمى "بيده" في كتابه سائب الذكر ، قال :

"وأقفات الدكاكين والنوافذ والأبواب والبيوت في المدينة كلها . وخيل الى أننى في بلدة قضى عليها بالحرب النهائي . وكانت فنان الأسطول الفخمة تنال على المدينة وتمحرق أحياءها في كل جهة . وتدور فوق رؤوسنا وهي تدوى دويها الفرع ، فكانت تدمر المنازل في ناحية وتشمل النيران في ناحية أخرى ، وترسل الموت في كل مكان . وقد مررت فوق رأسى خمس فذائف من "رسائل الاسابية الفرية" على حد تعبير أحد الضباط ، على سطح المنزل الذى كنت أقيم فيه تجاه حمامات (كارتونى) بالقرب من محطة الرمل ، فأصابت احداها مدرسة فدمرتها ، وأصابت ثلاث أخرى بعض المنازل من قصور الأغنياء بالقرب من شارع باب شرفى فخرتها ، والخامسة فنات أحد عشر شخصا وجوادين بأول شارع محرم بك ، ولم يكن لهذه القذائف القنالة التى أصابت قلب المدينة ما يقابلها من جانب المصريين . فان عمالنا قد ارناى منعا للدمار أن لا تشترك فلعنا كرم الناضورة وكوم الدكة في الضرب لوجودها وسط المدينة ... الخ "

ولم ينفرد الضباط والجنود المصريون ببطولة الدفاع في هذا اليوم وانما ساركهم في هذه البطولة أهالى الاسكندرية ، ولأهالى الاسكندرية في تاريخ الوطنية المصرية صفحات مجد مشرفات ، فقد تطوع السكندريون وقدموا ما استطاعوا من معونة وخدمات للجنود المحاربين ، شهد بهذا الشيخ محمد عبده حين قال :

"فكان الرجال والنساء تحت مطر السكال ونيران المدافع يلقون الذخائر ويقدمونها الى بقايا الطوبجية الذين كانوا يضرعون بها . وكانوا يلقون بلعن الأمبرال "سيمور" ومن أرسله "

وأكد هذا عرابي فقال في مذكراته :

” وفي أثناء القتال تطوع كثير من الرجال والنساء في خدمة المجاهدين ومساعدتهم في تقديم الدخائر الحربية واعطائهم الماء وحمل الجرحى ونضميد جروحهم ونقلهم الى المستشفيات “ .

وقال محمود باشا فهمي في كتاب البحر الزاخر :

” ورأيت في ذلك الوقت بمعنى ما حصل من غيرة الأهالي بمجدة رأس التين وأم كيبنة وطوابي باب العرب ، وهمتهم في مساعدة عساكر الطوبجية ، من جلبهم المهمات والدخائر وخراطيش البارود والمقذوفات ، هم ونساؤهم وأولادهم وبناتهم ، والبعض من الأهالي صار يعمر المدافع ويضربها على الأسطول “ .

هذا ما كان يعمل به الأهليون والصبية والنساء ، فإذا فعل توفيق وأين كان ؟

لقد كان توفيق يقيم أثناء الضرب في سراي مصطفى باشا بالرميل ، ويقوم معه بعض الأجانب وبعض الأمراء وفقر من الخائنين من أمثال سلطان باشا ، فلما انتهى الضرب أرسل الى ”سيمور“ يستأذنه في الانتقال الى سراي رأس التين فسمح له ، ومنذ تلك اللحظة انضم توفيق الى الانجليز انضماما سافرا .

ولن أطيل في ذكر تفاصيل الحوادث التالية ، فقد قاوم العرابيون في البحيرة ثم في الشرقية ، ولكن النتيجة الحتمية كانت معروفة منذ وطئت أقدام الانجليز أرض الاسكندرية .

بدأ الاحتلال الانجليزي اذن في اليوم الحادى عشر من شهر يوليه سنة ١٨٨٢ ، وأعلن الانجليز ، منذ اللحظة الأولى ، أنهم لن يبقوا في مصر طويلا ، وأنهم إنما جاءوا لينصفوا الخديو ويحرمونه من الثاثرين ، وأنهم بعد قليل سيرحلون ، وتكررت تصريحاتهم ووعودهم في هذا المعنى ، ولكن المصريين لم يصدقوا بهذه الفرية أو بهذه الوعود ، ولم يعترفوا بهذا الاحتلال لحظة واحدة ، بل ركزوا جهودهم لمقاومة البريطانيين والعمل على طردهم .

ولقد حاكم الانجليز عرابي وصحبه ونفوذهم خارج مصر ، وسرحوا الحبش ليقلموا أظفار البلد ، وتعاون الحكام والافطاعيون مع المحتلين على اسكات كل صوت ، واضعاف كل قوة ، واذلال كل عزيز .

مهاد طويل في سبيل الحرية

ولكن هل يستكين هذا الشعب الأبي لهذا الظلم وهذا المستعمر الفاسد ؛ كلا ، فالشعب المصرى كما عرفناه دائماً شعب دافى الجبوية ، موفور الوطنية ، قد يحنى الرأس أمام العاصفة ، ولكنه لا يستكين ولا يلين . فلم نلبث الدعوة الوطنية أن انبثقت بعد سنوات قليلة ، وعلى لسان شاب يافع صمبر السن ، أعزل من كل سلاح مادي ، ولكنه كان يناضل بروحه وقلبه ولسانه وفله ، هذا هو الزعيم الوطنى الكبير مصطفى كامل ، كان منذ أيام دراسته يرى ويتألم ، ويفكر ويعمل ويكتب ؛ لقد أنشأ وهو بعد تلميذ مجلة " المدرسة " وجعل شعارها : " حبك مدرستك ، حبك أهلك ووطنك " ، وكما كانت له من موافق وهو فى عهد التلمذة للدفاع عن الحق ورفع الظلم .

ثم حملته روحه القوية الى فرنسا ليتم تعليمه بها ، وحصل هناك فى سنة على ما لم يحصله غيره فى سنوات ، واتصل بالصحف والكتاب ، وبدأ يكتب فى الدفاع عن حق مصر وحريتها واستقلالها ، ويهاجم المحتلين الأنجليز ، وظل حياته كلها مجاهداً يتنقل بين مصر وبلدان أوروبا خطيباً وكاتباً ، مندداً بأعمال المحتلين ومنادياً بالجلاد ، وبحق مصر فى الاستقلال ، ينشئ الصحف باللغة العربية وباللغتين الانجليزية والفرنسية ، ويدبج المقالات ، وبعقد الاحتمات ، ويشير الشعور ، ويبعث النفوس ، يهدف بهذا كله الى اعادة الروح الى هذا الشعب المجيد .

وكانت ضربته القوية هي التي وجهها الى انجلترا بعد حادثة دنشواى البربرية
فألب الدول جميعا على انجلترا الى ان اضطرت اضطرارا الى سحب عميدها الخطير
صاحب الكلمة الأولى في مصر وقتذاك وهو "لورد كرومر" .

وقبيل وفاته أسس الحزب الوطنى ، وألقى خطبة الوداع ، وكل كلمة فيها
آية من آيات الوطنية .

وتولى زعامة الحركة بعده نطل الفداء والتضحية محمد فريد ، فسار على نهج
الزعيم الأول ، وضفى في سبيل الحركة بكل ما يملك من مال ، بل بصحته وحياته ،
فات في أوروبا عليلا غريبا عن الوطن الذى يحبه ويتفانى في خدمته .

وكانت ثورة سنة ١٩١٩ الثمرة الحقيقية لحركة مصطفى كامل ، وأذفنا في خلالها
الاستعمرين ألوان العذاب والمقاومة ، وحمل لواء النضال سعد زغلول ، وفاد المصريين
خطوات في طريق الحرية الى أن انحرفت انحلترا بمصر عن الطريق القويم ودخلت
بها في متاهة المفاوضات ، الى أن كانت معاهدة ١٩٣٦ التى سميت يوما من الأيام
بمعاهدة الشرف والاستقلال .

ثم تطورت الأحوال من سيء الى أسوأ حتى دان اليأس على نفوس الكثرين ،
وحسب بعض النافلين أن لا أمل في يقظة أو اصلاح ، ولكن الجبوية الدافقة
والوطنية المستكنة في هذا الشعب الخالد لم تلبث أن انفجرت في يولييه سنة ١٩٥٢
في شكل ثورة تعود بالوطنية المصرية الى أصولها الحقيقية .

ثورة سنة ١٩٥٢

وقد فهمت ثورة ١٩٥٢ التاريخ المصرى الحديث فهما صحيحا ، فقدرت
أن المحتل لا بد له من عمد يرتكز اليها لترسخ في البلاد أقدامه ، هذه العمد تتمثل
في الجالس على العرش يضفى بكل شيء في سبيل متمته وفي سبيل الابقاء على هذا

العرش وساطانه ، ونتمثل في جماعة من نهاري الفرص لاهم لهم الا انفي والاستزاده من النروذ بأى سبيل ، حتى ولو عارض هذا السبيل مع مصلحة الشعب والبلاد ، بل ولو عارض هذا السبيل مع المبادئ والمثل والشرف .

فكانت خطة الثورة خطة حكيمة تلخص في التخلص من هذا الجالس على العرش ، المايث بشرف الوطن ، والتخلص من هؤلاء الاقطاعيين النهاريين ، لعمود للشعب انسانته ، وللوطن كرامته .

أما الهدف الثاني للثورة فهو وضع سياسة اناجية اصلاحية عامة تعمل لرفع مستوى الشعب اقتصاديا ونقائيا وحيا .

وأما الهدف الأخير ، هدفها جميعا ، وأمنية الأجيال المنسجمة فهو اخراج المحل من أرض القنال لنظهر أرض الوادي جميعا من هذا الداس الذي ظل عالقا بها هذه السنوات الطوال . وقد كانت الاسكندرية أول مدينة اخذها جنود المدو . وشاء القدر العادل أن تكون أول مدينة تجلو عنها جنود المدو ، في فبراير ١٩٥٧ جلا الانجليز عن نكبات مسطفي باشا وعن فاعة كوم الدكة ، وفي مارس من نفس السنة جاوا عن نكباتهم بالقاهرة . وها نحن أولاء نحتفل بتحقيق الهدف الأكبر وهو جلاء المدو عن آخر معقل له في أرض الفنال .

أبها المصريون المجاد

لقد كانت هذه أمية أجدادكم وآباؤكم التي ظلوا يحاهدون في سبيل تحقيقها السنين الطوال ، والتي بذلوا في سبيلها الأرواح ، وعلى الطريق المؤدى اليها كم من دوع سكبت ، وكم من دماء أريق ، وكنتم أنتم السعداء أن فدر لكم أن تحيوا في عصر هذه الثورة الطاهرة الموفقة ، وأن تشاركوا في حصاد أجمادها ، وخير أجمادها استعادة الحرية المسلوبة .

العید الأكبر

عید الأعیاد ، عید الحرية والجلاد

فالیوم عیدنا الأكبر .

الیوم عید الأعیاد .

الیوم العید الحقیق نحس له فی نفوسنا فرحة لیس کثلتها فرحة .

وكم مرت بنا فی الماضی أعیاد كانت هی والمآتم سواء ، فلم یكن یحس بها انسان أو یفرح لقدمها انسان ، فبعضها كان عیدا للجلال علی عرشه وبعضها كان عیدا لاستقلال منوعوم .

أما الیوم ، ١٨ یونیه سنة ١٩٥٦ ، فهو عید الحرية الحقیق ، تجب له قلوبنا ، ونهتز لقدمه أرواحنا ، وتستبشر بحاوله وجوهنا .

فأفرحوا أيها المصريون كما لم تفرحوا من قبل ، وأعلنوا عن فرحتكم الكبرى ، وغنوا أغانی الحرية ، ورددوا أهالیج الاستقلال ، وانتشدوا أناشید العزة والكرامة .

تم

نم لا تلسوا وأنتم فی غمرة فرحتكم الكبرى أن تذكروا الشهداء من جنودكم وأبطالكم وزعمائكم الدین رووا هذا الفرس الدی تجنون نماره ، بدموعهم وعرقهم ودمائهم .

أسکتوا أغانیكم الیوم لحظة .

وأوقفوا أفراحكم الیوم هنیة .

واذكروا هؤلاء الأبطال الأجداد الذين سبقوكم بالإيمان والكفاح والتضحية
والفداء .

ففي هذه الذكرى بعض الوفاء لمن يجب لهم الوفاء .

ثم

ثم لا تنسوا وأنتم في غمرة فرحتكم الكبرى أن تشكروا .

أن تشكروا رجال الثورة وفي مقدمتهم صانع الثورة وبطل الجلاء
جمال عبد الناصر .

انهم فتية آمنوا بربهم وبوطنهم في وقت اشتد فيه الظلم وساد فيه الظلام ،
فوضعوا رؤوسهم على أكفهم ، وتقدموا لمخاربة قوى الشر جميعا ، فأعزهم الله
ونصرهم ، وأعز مصر كلها ونصرها بنصرهم .

انه واجب الشكر لمن يستحقه .

وانه واجب العرفان بالجميل .

وأنتم أيها المصريون من أعرف سموب الأرض بالجميل .

فأسكتوا أفراحكم اليوم لحظة ، وأوقفوا أغانيكم اليوم هنيئة ، لتحيا حملا ،
لتحيوا البطولة والمثل العليا ، لتحيا الأمل المشرق والمستقبل الباسم .

ثم

ثم لا تنسوا ، وأنتم في غمرة فرحتكم الكبرى ، أن تذكروا فضل الله عليكم

فأسكتوا أفراحكم اليوم لحظات .

وأوقفوا أغانيكم هنيئات .

لتتاجوا الله سبحانه مناجاة العبد الشاكر لألعمه .

والمعلوا له ركعات ، تذكرون فيها فضله ، وتشكرون فيها توفيقه ، وننتهون
اليه ، سبحانه وتعالى ، أن نسئ إليكم نعمه ، وأن يكذب لمصرنا العزيزة المجد والسؤدد .

الله أكبر .

الله أكبر كبيرا .

والحمد لله كثيراً .

الحمد لله أن مصر عبده

وأعز جده .

وهزم الأعداء والأحزاب وحده

الله أكبر ، والعرة والسؤدد لمصر

جمال الدين السبيل
أساد الاربغ بجامعة الاسكندرية

٩ من دى القعدة سنة ١٣٧٥

١٨ من بويه سنة ١٩٥٦



١٨٨٢

١٨٨٢

تم ، هوناقه ، طبع هذه السدة ،
بمطبعة جامعة الاسكندرية ، في يوم الاثنين
٩ من دى القعدة سنة ١٣٧٥ هجرة ، الموافق
١٨ من يونيو سنة ١٩٥٦ ميلادية .
مدبر المطبعة

على محمد الهوارى

